حوليات آداب عين شمس المجلد ٥٠ (عدد يوليو – سبتمبر ٢٠٢٢)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

الكتابة التاريخية بغرناطة في عهد بني نصر (٦٣٥ – ٨٩٧ هـ)

فهد جبرين محيل العتيبي*

قسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة عين شمس
fahad-jbreen@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠١٩/٧/٣
تاريخ التحكيم: ٢٠١٩/٧/٨
تاريخ قبول البحث: ٢٠١٩/٧/٢٢
تاريخ النشر: ٢٠٢٢/٩/٣٠

المستخلص:

اهتم الباحثون بدراسة تاريخ الأندلس لاسيما التدوين التاريخي في مملكة غرناطة منذ نشأتها سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م حتى سقوطها سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وتعد سنة ٦٣٥هـ نقطة تحول في تاريخ مدينة غرناطة ، بعد أن وصل إليها محمد بن يوسف بن نصر و أرسل أهلها ببعتهم إليه، وتسمى بالسلطان ابن الأحمر وباشر ببناء مملكة غرناطة ، وشهدت نمواً وازدهاراً وكثافة في السكان نتيجة للهجرة المكثفة لمسلمي الأندلس ، فضلاً عن رعاية السلطان ابن الأحمر للعلماء والفقهاء والشعراء فكان يقربهم إليه ،وهكذا سار على منواله سلاطين بني نصر في استقطاب المفكرين والعلماء ،وإسناد المناصب العلمية أو الإدارية إليهم في المملكة الغرناطية.

ثم كان لهذه النهضة أثرها في إنشاء المدراس وتوسيع المساجد وظهور المؤلفات في شتي الميادين العلمية ، مما ساعد على ازدهار حركة التدوين التاريخي في تلك المملكة .

وفيما يتعلق بمحتويات هذه الدراسة فتشتمل على مقدمة وتمهيد وستة فصول وخاتمة.

تناول الفصل التمهيدي علم التاريخ وتطوره بالأندلس قبل عصر بني نصر بغرناطة.

وتناول الفصل الأول: حسب أجناس الكتابة التاريخية في عصر بني نصر، والذين تم ترتيبهم حسب أجناس الكتابة التاريخية من حيث السيرة النبوية والتاريخ العام وتاريخ الدول والملوك والتواريخ المحلية والأنساب والتراجم.

وعالج الفصل الثاني: أجناس الكتابة التاريخية في عصر بني نصر والتي تنوعت تنوعا كبيرا لتشمل التاريخ العالمي وتاريخ الدول والملوك، والتاريخ المحلي (تاريخ المدن)، والأنساب والتراجم، ومعاجم الشيوخ، وغيرها.

وتناول الفصل الثالث: الموارد التاريخية لمؤرخي عصر بني نصر، حيث ركز على ست نقاط ، هي المشاهدة والمعاصرة، والروايات الشفهية، والوثائق، ومؤلفات المشارقة والمغاربة، والأسئلة والمكاتبة، والكتابات الأثرية والنقوش.

وتناول الفصل الرابع: مناهج الكتابة التاريخية عند مؤرخي عصر بني نصر، حيث اهتم بتقنيات البحث العلمي المتمثلة في اللغة والأسلوب، وطرق النقل، والنقد التاريخي وأنواعه.

وتناول الفصل الخامس: الرؤية التاريخية عند مؤرخي عصر بني نصر.

وتناول الفصل السادس: المقاصد والغايات عند مؤرخي عصر بني نصر.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس ٢٠٢٢.

اهتم الباحثون بدراسة تاريخ الأندلس لا سيما التدوين التاريخي في مملكة غرناطة منذ نشأتها سنة٦٣٥هـ/١٢٣٧م حتى سقوطها سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وتعد سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧ نقطة تحول في تاريخ مدينة غرناطة بعد أن وصل إليها محمد بن يوسف بن نصر وأرسل أهلها بيعتهم إليه وتسمى بالسلطان ابن الأحمر وباشر ببناء مملكة غرناطة وشهدت نمواً وازدهاراً وكثافة في السكان نتيجة للهجرة المكثفة لمسلمي الأندلس، فضلاً عن رعاية السلطان ابن الأحمر للعلماء والفقهاء والشعراء فكان يقربهم إليه، وهكذا سار على منواله سلاطين بني نصر في استقطاب المفكرين والعلماء وإسناد المناصب العلمية أو الإدارية إليهم في المملكة الغرناطية، ثم كان لهذه النهضة أثرها في إنشاء المدارس وتوسيع المساجد وظهور المؤلفات في شتى الميادين العلمية والأدبية.

لقد اهتم أهل غرناطة وهم جزء من أهل الأندلس بكتابة كافة ضروب وميادين علم التاريخ وتدوينه فاهتموا بكتابة السيرة النبوية، والتاريخ العام وتاريخ مدينتهم غرناطة واهتموا بالأنساب والتراجم فكانت لهم عناية فائقة بكتب الفهارس والمعاجم، ومن يستعرض ما تحتويه كتب التراجم والطبقات الأندلسية ولاسيما الغرناطية، يلاحظ أن مؤلفي هذه الكتب قد اهتموا اهتماماً بالغاً بتتبع أصول المترجمين والعناية بالأسانيد التي توصل إلى كثير من المعلومات، واقتضت طبيعة الأمور تمحيص هذه المعلومات ومعرفة الرجال والرواة والثقات الضابطين، وتتبع سيرهم العلمية والعملية والشخصية ومبلغ أعمارهم والوقوف على مسار حياتهم ووفياتهم وما نقلوه من كتب، وما درسوه وقرءوه وكتبوه وتعلموه على مشايخهم وأساتذتهم والتلاميذ الذين درسوا على أيديهم وقد عكف علماء الأندلس على ترجمة الرواة النقلة والعلماء من أهل كل فن، ومعرفة مصنفاتهم وما اشتغلوا به من ألوان المعرفة.

يشمل الحديث عن الكتابة التاريخية في غرناطة الحديث عن الرؤية التاريخية التي تبيين وجهة نظر المؤرخين من التعليل والتفسير، ومدى موضوعيتهم فى كتاباتهم التاريخية، ومن ثم فسيبدأ الباحث بالحديث أولا عن التعليل والتفسير ثم يتحدث عن الموضوعية والحياد.

التعليل التأريخى هو محاولة اكتشاف علة الأحداث الماضية أو سببها؛ أى أنه الإجابة عن السؤال: لماذا؟ لماذا وقعت حادثة ما؟ أو اتخذت شكلها المعين، بالمعنى الواسع الذى يقصد إليه بتعليل التاريخ؟ لماذا حدث التاريخ واتخذ الشكل الذى يتراءى لنا به؟[١]. ومن ثم فإن التاريخ هنا يبحث عن أسباب تسلسل الظواهر، ويحاول ربطها بعضها إلى بعض، ومحاولة تعليلها تعليلاً يقبله العقل[٢].

وبالرغم من أن التعليل عمل فلسفى، لكن التاريخ يشترك فيه، فإن أحداً لا يمكنه أن ينكر على المؤرخ تعليل الحوادث، ومحاولة البحث عن أسبابها. حيث يقول ابن خلدون: "ويحتاج صاحب هذا الفن "التاريخ" إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات.... والإحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق، أو ما بينهما من الخلاف، وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على أصول الدول والملل ومبادئ ظهورها، وأسباب حدوثها، ودواعى كونها، وأحوال القائمين بها وأخبارهم حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث، واقفاً على أصول كل خبر، وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والأصول، فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان، وإلا زيفه واستغنى عنه"[٣].

ومن مؤرخى غرناطة فى عصر بنى نصر الذين يبرز عندهم التعليل ابن خميس فى كتابه أعلام مالقة حيث يذكر عن أحد علماء مالقة من شراح الموطأ خبرا يوضح ميله للتفسير الدينى للأحداث إذ يجعل تأليف لشرح الموطأ بناءً على رؤيا رآها للنبى صلى الله عليه وسلم فيقول : " وكنت عند ابتدائي تأليفه أرى وأنا بين النائم واليقظان كأني أخرج إلى البحر على باب يسمى باب الفرج وهو باب الحلاقين فأقف على البحر فكان يلقى إلي من صنوف الحيتان ما يملأ الفضاء بين يدي وأمواجه تلقي بعضها على بعض إلي فكنت أروم تعبئتها وضمها وتلفيفها بالملح وأنظر في توطية لها من فرش ودوم بين يدي وآلة وكنت أقول: ألا رجل يعينني على تعبئة ذلك فكان يبدو لي رجل فيقول ارفع رأسك هذا رسول الله إلي على البحر من جهة القبلة فكنت أمشي إليه ألقاه وأسلم عليه فلما فرغت من السلام قال لي يا محمد أنا أعينك على تعبئة ما أردته من هذه فخذ في ذلك فكان يسوي بيديه الكريمتين وطاءها ثم أجمع إليه وأقرب بين يديه من تلك الحيتان وهو يسويها ويجعل ملحها صفا على صف حتى بلغ سبعة صفوف وهي كانت عدد أسفار المسودة إذا تمت ثم ضم عليها صيانتها وزمها ثم قال لي هذا مرادك منها قد تم. ثم استيقظت وتماديت على التأليف فلعمري لقد كان هذا التأليف أسهل علي من كل أمر حاولته جعله الله لوجهه " [٤]

ومن خلال كتاب المرقبة العليا للقاضى أبو الحسن النباهى نجد فيه النباهى قد علل بعض الأحداث تعليلا منطقيا إلى حد ما فذكر أن سبب مقتل الحاجب واضح الصقلبى نتيجة لأعمال الحيلة والخداع والغدر التى سعى بها ضد بنى ذكوان عند الخليفة هشام المؤيد [٥]، وأرجع مقتل الحاجب نجاح إلى استئثاره بالسلطة ومحاولته إحكام السيطرة على شئون البلاد، والتفرد بها بعد مقتل الأمير يحيي المعتلى [٦].

ويعلل النباهى قيام الملك لبطريرك النصارى وتعظيم النصارى له تعليلا دينيا بأن ذلك راجع إلى أنه قيم الديانة المسيحية وولى النحلة وخليفة المسيح عليه السلام فيهم " [٧].

وكذا استطاع لسان الدين ابن الخطيب أن يقف من الأحداث موقف المحلل والمعلل فى قوله: "أن وجود العدوى أمر ثابت بالتجربة والبحث واليقين الحسى والأخبار الموثوقة ألا نشاهد أن الشخص الذى لا يتصل بالمصابين يتبقى سليماً، بينما الذى يتصل بهم ينتقل إليه المرض"[٨].

ويذكر وفاة الحاكم بأمر الله الفاطمى، ويعلل السبب فى ذلك بأنه أراد قتل أخته فعلمت بذلك فأرسلت إليه من يقتله[٩]. ويعلل مجيئه بنبذة يسيرة ممن كان على عهد أخذ البيعة لهشام المؤيد بن الحكم، ليقتدى بهم من هم فى مثل ظروفهم فى عصر ابن الخطيب حيث يقول: "وهذه نبذة يسيرة ممن كان على عهد أخذ البيعة لهشام فى حياة أبيه،.... وجلبنا ذكرهم ليجد فيهم أسوة من باشر مثل ما باشروه فى زماننا"[١٠].

ومن التعليلات العجيبة والمهمة ذاك التفسير الذى أعطاه لكثرة الثوار بالأندلس أيام حكم الأمويين وخاصة فى بداية العهد حيث يقول: "والسبب فى كثرة الثوار بالأندلس يومئذ ثلاثة وجوه: الأول: منعة البلاد وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدو الدين فهم شوكة وحد بخلاف سواهم، والثانى: علو الهمم، وشموخ الأنوف، وقلة الاحتمال لثقل الطاعة، إذ كان من يحصل بالأندلس من العرب والبرابرة أشرافاً يأنف بعضهم من الإذعان لبعض، والثالث: الاستناد، عند الضيقة والاضطرار، إلى الجبل الأشم والمعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض"[١١].

ويبدو من التعليل أنه قائم على إدراك عميق وذكى للعوامل التى لها وزنها فى توجيه الأحداث السياسية فأرجع سبب كثرة الثوار إلى الموقع الاستراتيجى وإلى العامل الاجتماعى القائم على تعدد العصبيات وأخيراً إلى العامل السياسى واستغلال النفوذ القوى.

ولجأ ابن الخطيب إلى التعليل ذاكراً أسباباً سياسية واقتصادية، مثل سياسة الحاكم نفسه أو وزرائه تجاه الرعية، مثل ذكره خلع "هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر". بسبب وزير له يدعى "بالقزاز" والذى أساء معاملة الوزراء والرعية آنذاك[١٢]. كما يذكر ثورة الجند على أبى مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية وكان سببها أن مصادر الجباية ضاقت، وكرهته الرعية وثار به الجند[١٣].

ويعلل سبب قيام دولة الأدارسة العلويين الحسنيين بالمغرب الأقصى وخروجهم على الدولة العباسية بقوله: "كان السبب فى ذلك أن محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن على بن أبى طالب خرج على أبى جعفر المنصور ثانى العباسيين طالباً حقه فى الخلافة ودعا فى الحجاز إلى نفسه، فأجابه كثير من الناس"[١٤]. وجاء ابن الخطيب بذكر نبذة عن أحوال ملوك الطوائف ليرضى كل من يقرأ عنهم بحاله، وليفرح بما هو عليه من شأنه حيث يقول: "جلبنا منهم ذكراً ليغتبط مطالعه بحاله، ويرضى الواقف عليه من زمانه، ويبتهج بشأنه ويرى أنه أوثق عهده، وأحكم عقده، وأرحب عطناً، وآمن وطناً، وسبحان من لا تزن الدنيا عنده جناح بعوضة"[١٥].

ويتضح من خلال كتاب الإحاطة ولع ابن الخطيب بتعليل كل شىء وتفسيره. فقد خصص القسم الثانى للتراجم فقط، وهى تراجم متنوعة، قسمها تقسيماً متميزاً، ورتبها ترتيباً متفرداً حيث يشير إلى ذلك بقوله: "**وذكرت الأسماء على الحروف المبوبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المترتبة، فذكرت الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكبراء، ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المقرئين والعلماء، ثم المحدثين والفقهاء، وسائر الطلبة النجباء، ثم الكُتاب والشعراء، ثم العمال الأثراء، ثم الزهاد والصلحاء، والصوفية والفقراء**"[١٦] ويعلل ابن الخطيب هذا الترتيب من حيث التقديم والتأخير بقوله: "**ليكون الإبتداء بالملك، والاختتام بالمسك**"[١٧].

ويبرز اهتمام ابن الخطيب بتفسير أسباب الأمراض كأحد أنواع التفاسير الاجتماعية من خلال كتابه : "**عمل من طب لمن حب** "، وهو من أهم مؤلفات ابن الخطيب الطبية، ألفه لسلطان المغرب أبى سالم المرينى[١٨]. وقد كتبه فى منفاه بالمغرب سنة ٧٦١هـ[١٩]. وقد أشار ابن الخطيب إلى أهمية هذا الكتاب قائلاً: "**ومنزلته فى الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبى عمرو بن الحاجب المختصر فى الطريقة الفقهية لا نظير له**"[٢٠]. وهو فى سفر[٢١].

وقد تناول فيه ابن الخطيب مختلف الأمراض، ويذكر أسبابها وكيفية علاجها والأغذية المناسبة لكل مرض وهو يتكون من جزأين، يحتوى الأول على وصف وشرح للأمراض المعينة مثل الصداع وأورام الرأس، ويتعلق الجزء الثانى بالأمراض التى لا تخص عضواً معيناً، مثل الحميات والأورام والجراحات وأمراض الجلد والبدن[٢٢]. والكتاب لا يدل على إمامته الطبية فحسب، ولكنها جملة تحجب من ورائها إمامته الفقهية[٢٣].

وفى كتاب آخر لابن الخطيب يظهر من خلاله التفسير الاجتماعى والتفسير المؤسس على علم الفلك، وذلك من خلال كتاب : "**الوصول لحفظ الصحة فى الفصول**"، وهو كتاب فى الطب ذكره ابن الخطيب فى الإحاطة ضمن تواليفه[٢٤] كما ذكره المقرى

أيضاً[٢٥]، وكما هو واضح من العنوان، يعرض فيه ابن الخطيب برنامجاً دقيقاً يساعد على حفظ الصحة من العلل والأمراض المختلفة، متتبعاً فيه جميع الأطوار التى يمر بها الإنسان فى حياته وكيف يتعهد صحته وصحة أبنائه بالصورة المرغوب فيها.

ولقد ربط فيها ابن الخطيب مراعاة الصحة بحسب الفصول الأربعة، إذ لكل فصل خصائصه المتميزة ومؤثراته المختلفة على صحة الإنسان. وقد فرغ ابن الخطيب من تأليف هذا الكتاب فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م أى قبل وفاته بنحو خمس سنوات، وأهداه للسلطان محمد "الغنى بالله"، وضمنه خلاصة تجاربه ومعارفه، فى حفظ الصحة والأغذية والوقاية من الأمراض ومعرفة علاماتها قبل نزولها[٢٦].

ويشتمل هذا الكتاب على جزأين. الجزء الأول: ويشتمل على حقيقة الفصول وأسبابها، وهو مبحث يستعين بعلم الفلك والجغرافية الفلكية. كما يتكلم فى التغيرات التى تعرض للفصول، وهو يتكلم عن الكليات التى تربط الفروع بالأصول وتشمل الكلام عن العناصر التى يتركب منها بدن الإنسان وعلى المزاج والأعضاء والأرواح والقوى والأفعال. والأمور الضرورية للإنسان كالهواء ومنفعته وتغيراته فى نفسه، وتغيراته لاختلاف الأماكن والبقاع، ثم يعرض المأكول والمشروب وتقدير الحاجة إلى الغذاء والكلام عن بعض الأطعمة المطبوخة. ثم ضرورية الماء ومنفعته فى بدن الإنسان، وأحكام أصناف الماء، واستعمال الماء وغيره مما يشرب. ثم يتحدث أخيراً عن حقيقة النوم واليقظة، ومنافعهما ومضارهما[٢٧].

أما موضوعات الجزء الثانى فهى اختلاف الأمزجة على الإجمال والتفصيل من حيث حال المزاج المعتدل، وعلاماته، ثم المزاج الصفراوى، والمزاج الدموى. وهناك علامات تدل على اقتراب الأمراض يتحفظ منها قبل وقوعها، وتدبير بدن الإنسان بحسب ما يتوالى عليه من الفصول الأربعة (الربيع – الخريف – الصيف – الشتاء)، ثم تدبير أحوال الأطفال الرضع، وإصلاح أخلاق الطفل، وتدبير حال الشيوخ، وحال المسافرين فى البر والبحر من حيث الغذاء والمشروب وإتقاء عوارض الطبيعة، وما يصيب البدن من إعياء وحر وبرد[٢٨].

كذلك صنف ابن الخطيب "**رسالة الطاعون**"[٢٩] وهى رسالة طبية وصحية من نوع خاص كتبها عن الطاعون الجارف الذى داهم الأندلس وسائر العالم الإسلامى سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. وفيها يصف ظروف ظهوره وانتشاره، وأعراضه الأولى، وسبل التحوط منه[٣٠]. وفيه يثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والمشاهدة والأخبار المتواترة حتى ذكر أن العدوى تنتشر إذا لبس الرجل ثوب المريض، أو حتى علق بإذنه قرطه، فتنتقل العدوى إلى البيت، كله، ثم إلى الجيران، والأقارب والزوار[٣١].

وفيما يخص التفسير الصوفى فقد صنف ابن الخطيب كتابا سماه : " **روضة التعريف بالحب الشريف**" **لجأ فيه إلى التفسير الصوفى، وكان لهذا الكتاب مكانة خاصة فى نفس ابن الخطيب، لأنه الاستجابة الحقيقية للمعاناة الروحية التى كانت تجول** فى خاطره منذ عودته إلى الوزارة الثانية، وهو يمثل حقيقة النزعة الصوفية التى تمكنت من روح ابن الخطيب وولدت لديه الرغبة فى الفرار إلى الله والتخلى عن المشاغل السياسية وأمنيته فى الذهاب إلى الحجاز لقضاء الفرض[٣٢].

وهو مؤلف من نوع خاص، ويعتبر بفكرته وأسلوبه من أقوى نفثات ابن الخطيب النثرية وأبلغها وأحفلها بالأفكار الفلسفية الطريفة، والتشبيهات المبتكرة فى موضوع المحبة الروحية والإلهية، وهو يدل فوق ذلك على تضلع ابن الخطيب فى التصوف ودراسة مختلف المدارس الصوفية[٣٣].

وقد ألف ابن الخطيب هذا الكتاب بناءً على طلب من سلطانه محمد الخامس "الغنى بالله" ليعارض فيه ديوان "الصبابة" "لابن أبى حجلة"[٣٤] القاطن بالقاهرة. وقد وصلت نسخة من هذا الكتاب إلى الأندلس فأثارت اهتمام كثير من الأدباء والمثقفين هناك[٣٥]. حيث يقول ابن الخطيب: "**فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية... ديوان الصبابة، وهو الموضوع الذى اشتمل من أبطال العشاق على الكثير، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كل نظيم ونثير**"[٣٦].

وقد دفع ابن الخطيب بنفسه للخوض فى فن هذا الكتاب قائلاً: "**فصدرت إلىّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء فى فنه والمنادمة على بنت دنه**"[٣٧]. فأعرض عن تناول موضوع الحب والعشق الذى يقع بين البشر ليرتفع إلى موضوع أشرف من ذلك وهو موضوع الحب الإلهى. "**وعَنَّ لى أن أذهب بهذا الحب المذهب المنادى إلى البقاء... الذى غايته نعيم لا ينقضى أمده، ولا ينفد مدده، ولا يفصل وصله، ولا يفارق الفرع أصله، حب الله الموصل إلى قربه المستدعى لرضاه وحبه**"[٣٨].

وتناول ابن الخطيب الحب والمحبة فى هذا الكتاب بإسهاب كبير، معتمداً على آراء غيره كثيراً، وعلى آرائه قليلاً ضمن المبادئ المتداولة المعروفة بأن الوجود كله أصله العشق والمحبة، أو الحب حياة النفوس الموات، وعلة امتزاج المركبات، وسبب ازدواج الحيوان والنبات[٣٩].

أما المنوال الذى سار عليه ابن الخطيب فى كتابه من الناحية المنهجية فهو غريب، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك بقوله: "**فذهبت فى ترتيبه أغرب المذاهب**"[٤٠]. حيث جعله على شكل شجرة وأرضاً، فجعل أصل المحبة شجرة، والأرض النفوس التى

تغرس فيها، وجعل أغصان الشجرة أقساماً وجعل أوراقها هى الحكايات التى تحكى، وأزهارها هى الشعر الذى يُقرض، وجعل ثمرتها هى الوصول إلى الله تعالى[٤١].

وعلى الرغم من مكانة هذا الكتاب عند ابن الخطيب، فقد كان له دور حاسم، ومصيرى فى حياة ابن الخطيب، فهو الكتاب الذى اتخذه خصومه ضده ليتهموه بالكفر والزندقة، لما ورد فيه من علوم وفنون من فلسفة وتصوف وحكم وحكايات وشعر وشواهد من الحديث والخبر، كل بحسب المناسبة، والموضوع، حيث يقول ابن الخطيب: "**ولم أترك فناً إلا جمعت بينه وبين مناسبة، ولا نوعاً إلا ضممته إلى ما يليق به**"[٤٢].

وبالنظر فى كتاب نثير الجمان لابن الأحمر نجده يعلل إخراج حكام غرناطه من بنى الأخمر له ولأهله للخوف على سلطانهم ومن ثم يقول : " وسميت كتابى هذا نثير الجمان فى شعر من نظمنى وإياه الزمان وألفته وأنا ببر العدوة فى كنف الملك المرينى والحفوة حين أخرجنا من الأندلس بنو عمنا الملوك الأحمريون وعشيرتنا السلاطين النصريون خوفا منا على سلطانهم بأوطانهم لأجل واش مردود متملك بذلك غير ودود...." [٤٣].

وبشأن الموضوعية والحياد فقلما نجد مؤرخا فى ذلك العصر كان موضوعيا موضوعية مطلقة وإذا دققنا النظر قى كتابات النباهى وجدناه كذلك فقد كان صاحباً وصديقاً لابن الخطيب فى يوم من الأيام، ومع ذلك فقد سجل علي صاحبه الزندقة والإلحاد[٤٤]، وأفتى بوجوب حرق كتبه التي تتناول العقائد والأخلاق، فتم إحراقها في غرناطة منتصف سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م بمحضر من الفقهاء والعلماء[٤٥].

وعلى الرغم من قيمة مصادر وتراث ابن الخطيب، إلا أنه لم يتسم بالموضوعية فى كل الأحيان فيما ينقله، فأحياناً ينقل الخبر كما هو، متاثراً بكاتبه، فقد تاثر بالنقل من ابن الصيرفى، من حيث أسلوبه، من نقده أو هجائه لشخص ما، وهو ما حاكاه ابن الخطيب عند نقده لمن يكرهه. فقد وصف ابن الصيرفى عبد الله بن بلقين بأنه كان جباناً، مغمد السيف[٤٦]. وهو الشئ نفسه الذى فعله ابن الخطيب عند الترجمة للسلطان محمد بن إسماعيل بن فرج[٤٧].

كما أتى بجزء من ترجمة محمد بن مسعود بن أبى الخصال، من قلائد العقيان لابن خاقان، ولكنه لم يعدل عن كلام ابن خاقان الجارح فى حق المترجم على الرغم من أن ابن الخطيب حرص على تقديمه فى أحسن صورة، وانتقى أفضل ما كتب الآخرون عنه[٤٨]، لكنه على الجانب الآخر نراه ينتقد عبد الملك المراكشى، ولم يقتصر دوره على مجرد ناقل للخبر، فعند ذكر المراكشى لأولية أحمد بن عبد الله المخزومى يذكر أنه من بيت نباهة، ونفى ابن الخطيب ذلك وعاب عليه[٤٩]، كما أنه وجه اللوم للمراكشى أيضاً لأنه لم يستوف الترجمة لمالك ابن عبد الرحمن بن الفرج، ما استوفى به غيره[٥٠].

ويورد لنا فى الإحاطة نماذج عديدة من التراجم المختلفة فى صور متباينة، تبرز شخصيات أصحابها إبرازاً قوياً، فأحياناً تتجه نحو المديح والتقدير، وأحياناً أخرى تتجه إلى الذم والانتقاص، وتتسم حملاته أحياناً بمنتهى القسوة والعنف ويبدو ذلك بالأخص فى تراجم بعض الأمراء والوزراء الذين خرجوا على سلطانه الغنى بالله. ونزعوه عن عرشه، واضطروه إلى الالتجاء إلى المغرب، واضطر وزيره ابن الخطيب إلى اللحاق به فى المنفى. أما من عاصره من السلاطين مثل أبى الحجاج يوسف، وولده محمد الغنى بالله. فكانت الكتابة عنهما خالية من أى نقد.

جاءت الكتابة عن السلطان "محمد الخامس" الغنى بالله مصطبغة بأحاسيس ابن الخطيب وآرائه حيث يصفه بأحسن الصفات قائلاً: "صدر الصدور، وعلم الأعلام، وخليفة الله، عماد الإسلام"[٥١]. ثم يصف حاله بقوله: "هذا السلطان أيمن أهل بيته نقيبه، وأسعدهم ميلاداً وولاية، قد جمع الله له بين حُسن الصورة، واستقامة البنية، واعتدال الخلق"[٥٢]. ويمتدح الأمير إسماعيل بن فرج بن إسماعيل (ت ٧٢٥هـ) بقوله: "كان رحمه الله حسن الخلق،.... سليم الصدر، كثير الحياء، صحيح العقل، ثبتاً في المواقف، عفيف الإزار، ناشئاً في حجر الطهارة[٥٣].

ويثنى من بعده على ولده الأمير محمد بن إسماعيل بن فرج (ت ٧٣٣هـ). حيث يقول: "كان معدوداً فى نبلاء الملوك صيانة وعزاً وشهامة،.... المثل المضروب فى الشجاعة"[٥٤]. بينما امتدح الأمير نصر بن محمد بن محمد بن يوسف (ت ٧٢٢هـ) لأنه "مجبولاً على طلب الهدنة، وحب الخير، مغمد السيف، قليل الشر، نافراً للبطر وإراقة الدماء"[٥٥]. وأثنى على الأمير يوسف بن إسماعيل "أبى الحجاج" (ت ٧٥٥هـ). لأنه كان "عذب اللسان، وافر العقل، عظيم الهيبة.... مائلاً إلى الهدنة، مزجياً للأمور، كلفاً بالمبانى والأثواب، جَّماعة للحلى والذخيرة، مستميلاً لمعاصريه من الملوك"[٥٦].

وعلى الجانب الآخر نجده ينتقد السلطان محمد بن إسماعيل بن فرج (ت ٧٦٣هـ) وهو الذى جرت لابن الخطيب محنة قاسية على يديه، ومنذ مطلع الترجمة تصطبغ لغة ابن الخطيب بمشاعر البغض والكراهية الشديدة لهذا السلطان، حيث يقول: "الرئيس المتوثب على الملك، وحى كرسى الإمارة، وعاقد صفقة الخسران المبين"[٥٧]. ثم يقول: "كان شيطاناً ذميم الخلق، حرفوشاً

على عُرف المشارقة، مترامياً للخسائس، مألفاً للدعرة والأجلاف والسوار وأولى الريب، خبيثاً كثير النُكر"[٥٨]. وعند ذكر مولده يصفه بالمشؤوم: "مولد هذا النسمة المشؤومة أول يوم من رجب عام اثنين وثلاثين وسبعمائة"[٥٩].

وعند ذكر وزيره محمد بن إبراهيم بن أبى الفتح الفهرى ينعته بأسوأ الصفات قائلاً: "استوزر الوزير المشؤوم، ممده فى الغى، الوغد، الجهول.... الحقود على عباد الله لغير علة من سوء العاقبة،.... البعيد عن الخير بالعادة والطبيعة"[٦٠]. وكذلك الحال بالنسبة لكاتب سره "أبو محمد عبد الحق بن عطية"، حيث يقول: "صاحبنا الفقيه الأهوج، قصب الريح، وشجرة الخور"[٦١]. كما يذكر قضاته ومنهم الشيخ أبو البركات شيخ ابن الخطيب نفسه، ويصفه بأنه مخدوع بزخرف الدنيا على كبره، ويدعو له بلطف الله، وأن يعود إلى رشده وصوابه[٦٢]. وصار على هذا النحو من نقد عند ذكر الأمير إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل (ت ٧٦١هـ) عندما تحدث عن وزرائه وكُتابه وقضاته[٦٣].

وينتقد إبراهيم بن أحمد الأغلبى (ت ٢٨٩هـ) أحد أمراء الأغالبة المتأخرين لإسرافه فى القتل سواء خدمه أو بناته أو إخوته وقام ابن الخطيب بالدعاء عليه بعدم الرحمة والمغفرة. حيث يقول: "قلت: اللهم لا ترحمه، وضاعف عليه سخطك وعذابك الذى لا يعقبه رضاك ولا تمنحه رحمتك"[٦٤].

كما أنه انتقد موقف الأندلسيين الذين ثاروا على المرابطين واستصرخوا بالموحدين، لأنه كان يفضل الدولة المرابطية على الدولة الموحدية، فى باب القوة والصبر على مجابهة العدجو. حيث يقول: "واستصرخهم الناس، وثاروا بمن ببلادهم من المرابطين، سوء جوار، وحباً فى الإدالة وتبدل الملوك"[٦٥].

ورغم المكانة التى كان يحتلها المعتمد بن عباد فى قلب ابن الخطيب، فإنه لم يتورع عن نقده، والوقوف بكل تجرد بجانب الحق، وتقرير العيوب، بكل صراحة وتجرد، حيث قال معلقاً على أحد مواقف ابن عباد السياسية المتمثلة فى انتقامه من أحد المتمردين عليه بعد تمكنه منه غير مكترث باستعطافه: "وسبحان الذى جعل نفوس أكثر الملوك تنقاد فى أزمة حب التشفى، وطلب الإنصاف، فلا تتوقف فى مطاوعته، وذلك لأنها نفوس غير مقهورة بالرياضة والملكات، ولا مرغمة بفراق الشهوات، إلا للقليل النادر فمن كانت نفسه متصفة بالرحمة فى أصل جبلتها.... وما كان أجمل بالمعتمد أن يبقى على جان من عبيده، قد مكنه الله من عنقه"[٦٦].

وعمد ابن الخطيب إلى النيل من أعدائه بشدة، وقبَّحَ من سيرتهم، ويبدو ذلك واضحاً حينما ترجم للقاضى النباهى فبدأ التعريض به ابتداء من ذكر اسمه فيورد اسمه هكذا "القاضى على بن عبد الله بن الحسن النباهى البنى المدعو بجعسوس"[٦٧]، ثم يبدأ لسان الدين ترجمته للرجل قائلاً: "أطروفة الزمن، التى تجل غرائبها عن الثمن، وقرد شارد من قرود اليمن، ذنباً وأحداقاً، وفروة وأشداقاً، وإشارة واصطلاحاً وخُبثاً وسُلاحاً، لا يفرق بينهما فى الشكل"[٦٨].

وإذا ما انتقل لسان الدين إلى إيراد أمثلة من شعر النباهى كان الشعر جيداً، ولكنه يشكك فى إسناده إليه[٦٩] أو يأتى بقصائد قالها النباهى فى مدح لسان الدين حين كان صاحب الوزارة والإمارة[٧٠]. على أن لسان الدين فى ترجماته الأخرى للنباهى فى غير "الكتيبة الكامنة" مثل الإحاطة، أثنى عليه كثيراً، وظفر منه النباهى بأكرم النعوت والخلال، حيث يقول فى مقدمة الترجمة "صاحبنا أبو الحسن"[٧١]. ولكن تبدل الأمر بعد اشتراك النباهى فى اتهامه بالإلحاد والزندقة.

ويعمد لسان الدين إلى نفس الأسلوب مع الوزير الشاعر ابن زمرك. فيقول فى ترجمته: "مخلوق من مكيدة وحذر، ومفطور اللسان على هذيان وهذر، خبيث إن شكر، خدع ومكر، ودس فى الصفو العكر"[٧٢] ويتنافى هذا أيضاً مع الترجمة لابن زمرك فى كتاب الإحاطة الذى أثنى عليه كثيراً ووصفه بأحسن الصفات[٧٣].

Abstract

Historical writing in Granada during the reign of Bani Nasr (٦٣٥ / ٨٩٧ AH)

BY Fahad Jebreen Muhail ALOtaibi

Researchers were interested in studying the history of Andalusia, Especially the historical narration in the Kingdom of Granada since its establishing in the year ٢٣٥ AH / ١٢٣٧ AD Until its fall in the year ٨٩٧ AH/ ١٤٩٢ AD.

The year ٦٣٥ AH is considered a turning point in the history of the city of Granada after Muhammad bin Yusuf bin Nasr arrived in it, and its people pledged allegiance to him, And he is called Sultan Ibn Al-Ahmar and began building the Kingdom of Granada, And known a grow and density of the population as a result of the massive immigration of the Muslims of Andalusia, as well as the care of Sultan Ibn al-Ahmar for scholars, jurists and poets, and he brought them closer to him.

and thus the Sultans of Bani Nasr followed his example in attracting thinkers and scholars. And assigning scientific or administrative positions to them in the Granada kingdom.

Then this renaissance had an impact on the establishment of schools, the expansion of mosques and the emergence of books in various scientific fields, which helped the prosperity of the movement of historical codification in that kingdom.

With regard to the contents of this study, it includes an introduction, a preface, six chapters and a conclusion. The introductory chapter dealt with the science of history and its development in Andalusia before the period of Bani Nasr in Granada.

The first chapter dealt with: according to the types of historical writing in the period of Bani Nasr, who were arranged according to the types of historical writing in terms of prophetic biography, general history, history of states, kings, local dates, genealogies and translations.

The second chapter deals with the types of historical writing in the period of Bani Nasr, which varied greatly to include global history, history of states and kings, local history (history of cities), genealogies and translations, dictionaries of sheikhs, and others.

The third chapter deals with the historical resources of historians of the period of Bani Nasr, where it focused on six points, watching and contemporary, oral narratives, documents, the writings of the East and the West, questions and writing, archaeological writings and epigraphy.

The fourth chapter deals with the methods of historical writing for the historians of the period of Bani Nasr, where it is concerned with the techniques of scientific research represented in language and style, methods of transmission, and historical criticism and its types.

The fifth chapter deals with the historical view of historians of the period of Bani Nasr.

The sixth chapter deals with the aims and objectives of the historians of the era of Bani Nasr.

الهوامش:

(١) قسطنطين زريق: نحن والتاريخ، ص ١٣٣، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ت).
(٢) محمد عواد حسين: صناعة التاريخ، ص ١١٨، مجلة عالم الفكر، ع مايو – يونيو، الكويت، ١٩٧٤.
(٣) المقدمة، ص ٣٩٨-٣٩٩.
(٤) ابن خميس : أعلام مالقة، ص٧٤،٧٥.
(٥) النباهى : المرقبة العليا، ص٨٦،٨٧
(٦) نفسه، ص٩٠،٩١
(٧) نفسه، ص٤٠
(٨) Müller: Ibn Ulkhatibs….p. ٥٦٥.
(٩) أعمال الأعلام، ج١، ص ١٥١.
(١٠) أعمال الأعلام، ج٢، ص ٥٧.
(١١) أعمال الأعلام، ج٢، ص ٣٦.
(١٢) نفسه، ص ١٣٨.
(١٣) نفسه، ص ٢٥٦.
(١٤) أعمال الأعلام، ج٣، ص ١٨٨.
(١٥) أعمال الأعلام، ج٢، ص ١٤٥.
(١٦) نفسه، ص ١٠.
(١٧) نفس المصدر والصفحة.
(١٨) الريحانة، ج١، ص ٣٧؛ أحمد محمد الطوخى: مظاهر الحضارة فى غرناطة، ص ٣٧٦.
(١٩) أحمد مختار العبادى: لسان الدين وكتاباته التاريخية، ص ٤٦؛ أحمد الطوخى: المرجع السابق، ص ٣٧٦.
(٢٠) الإحاطة، مج٤، ص ٣٩٠؛ المقرى: النفح، مج ٧، ص ٩٨.
(٢١) النفاضة، ص ٣٦٧.
(٢٢) محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٧٥؛ أحمد مختار العبادى: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، ص ٤٦؛ أحمد محمد الطوخى: المرجع السابق، ص ٣٧٦.

Fuat Sezgin: Islamic Medicine", Vol. ٩٣, Texts and Studies on Islamic Medicine, VI, Institute for the history of Arabic-Islamic Seince at the Johann Wolfgang Goethe University, Frankfurt, ١٩٩٧, p. ٧٥.

(٢٣) التطوانى: ابن الخطيب من خلال كتبه، ق٢، ص ٩٨.
(٢٤) الإحاطة، مج٤، ص ٣٨٨.
(٢٥) النفح، مج٧، ص ١٠٠، أزهار الرياض، ج١، ص ١٦٢.
(٢٦) محمد العربى الخطابى: الطب والأطباء فى الاندلس الإسلامية، ج٢، ص ١٩٤؛

Fuat Sezgin: Islamic Medicine, p. ٧٥

(٢٧) محمد العربى الخطابى: المرجع السابق، ص ١٩٤-١٩٥.
(٢٨) المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٦.
(٢٩) الإحاطة، مج٤، ص ٣٨٨؛ المقرى: أزهار الرياض، ج١، ص ١٦٢.
(٣٠) Müller: Ibnulkhatibs Bericht über die pest, sitzung der philos-philol, classe vom٦, Juni, ١٨٦٣, p. ٥٦٠ مقال ضمن دراسات فى الطب عند العرب والمسلمين، يصدرها فؤاد سزكين، منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، ق١، ١٩٨٧، ألمانيا الاتحادية، محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب وتراثه الفكرى، ص ٢٨٠؛

M.C.Vázquez Benito: La Magia en dos Tratados de Patologia del siglo XIV: Arabe Y Castellano, Revista de Al-Qantara, vol. XII, Madrid, ١٩٩١, p. ٣٩٠

؛ التطوانى: ابن الخطيب من خلال كتبه، ق٢، ص ٩٨-٩٩.

(٣١) Müller: Ibnulkhatibs….., p. ٥٦٥؛ محمد العربى الخطابى: الطب والأطباء فى الأندلس، الإسلامية، ج٢، ص ١٨٧؛ سعد عبد الله البشرى: أثر الدراسات الطبية فى الأندلس على أوربا، ص ١٧٣، مجلة العصور، مج٥، ج١، دار المريخ للنشر، لندن، ١٩٩٠؛ يوسف شكرى فرحات: غرناطة فى ظل بنى الأحمر، ص ١٣٨.

(٣٢) عبد القادر زمامة: متى وأين تصوف ابن الخطيب؟، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مج٢٨، ص ٧٩، مدريد، ١٩٩٦.
(٣٣) محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب، ص ٢٦٢.
(٣٤) **ابن أبى حجلة:** هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبى بكر التلمسانى المغربى ولد سنة ٧٠٠هـ بالمغرب بزاوية جده أبى حجلة عبد الواحد، ثم رحل إلى الشام ومنها إلى مصر ومات بها وكان إماماً بارعاً فاضلاً، وله عدة مصنفات منها ديوان الصبابة فى أخبار العشاق، وكتاب رشد اللبيب إلى معاشرة الحبيب وتوفى سنة ٧٧٦هـ (انظر: ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ١٤٦؛ ابن تغرى بردى: المنهل الصافى، ج٢، ص ٢٥٩–٢٦٠؛ عمر فروخ: تاريخ الأدب العربى، ج٦، ص ٥١٧، دار العلم للملايين، بيروت).
(٣٥) ابن الخطيب: روضة التعريف بالحب الشريف، تحقيق وتعليق: عبد القادر أحمد عطا، ص ٤٦–٤٧، ط١، منشورات محمد على بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣؛ التعريف بابن خلدون، ص ١٢١؛ المقرى: النفح، مج٧، ص ١٠٠.
(٣٦) ريحانة الكتاب، ج١، ص ٣٩. ويشير ابن الخطيب إلى الضجة التى أحدثها الكتاب فى الأوساط الثقافية حيث يقول: "فعمر المحافل والمجالس، واستجلس الراكب واستركب الجالس، يدعو الأدباء إلى مأدبته فلا تتوقف" انظر: روضة التعريف، ص ٤٧.
(٣٧) روضة التعريف، ص ٤٨.
(٣٨) نفسه، ص ٥١.
(٣٩) محمد مفتاح: فلسفة انتظام الكون ومكانة الإنسان فيها (نماذج من فكر الغرب الإسلامى)، ص ١٣، مجلة المناهل، الرباط، المغرب، يوليو، ٢٠٠٣.
(٤٠) روضة التعريف، ص ٥٣.
(٤١) نفس المصدر والصفحة.
(٤٢) نفسه، ص ٥٤.
(٤٣) ابن الأحمر : نثير الجمان، ص٢١،٢٢.
(٤٤) المقري: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، منشورات مطبعة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٣٩، ١/ ٢١٠ – ٢١١.
(٤٥) النباهى : المرقبة العليا، نشر ليفى بروفنسال، ص ٢٠٢.
(٤٦) الإحاطة، مج٣، ص ٢٩٠.
(٤٧) الإحاطة، مج١، ص ٣٠١.
(٤٨) الإحاطة، مج٢، ص ٢٦٩.
(٤٩) الإحاطة، مج١، ص ٦٢.
(٥٠) الإحاطة، مج٢٣ ص ٢٣٢.
(٥١) الإحاطة، مج٢، ص ٥.
(٥٢) نفس المصدر والصفحة.
(٥٣) الإحاطة، مج١، ص ٢٠٠؛ اللمحة، ص ٧٨.
(٥٤) الإحاطة، مج١، ص ٣٠٦.
(٥٥) الإحاطة، مج٣، ص ٢٥٤.
(٥٦) الإحاطة، مج٤، ص ٢٨٠.
(٥٧) الإحاطة، مج١، ص ٣٠١.
(٥٨) نفس المصدر والصفحة.
(٥٩) نفسه، ص ٣٠٦.
(٦٠) الإحاطة، مج١، ص ٣٠٣.
(٦١) نفسه، ص ٣٠٤.
(٦٢) نفس المصدر والصفحة.
(٦٣) نفسه، ص ٢١٤–٢١٨.
(٦٤) أعمال الأعلام، ج٣، ص ٣٠.
(٦٥) أعمال الأعلام، ج٢، ص ٢٦٥.
(٦٦) أعمال الأعلام، ج٢، ص ١٦٢.
(٦٧) الكتيبة الكامنة، ص ١٤٦.
(٦٨) نفس المصدر والصفحة.
(٦٩) نفسه، ص ١٤٩.
(٧٠) نفسه، ص ١٥١.
(٧١) الإحاطة، مج٤، ص ٦٩.
(٧٢) الكتيبة الكامنة، ص ٢٨٢.
(٧٣) الإحاطة، مج٢، ص ١٩٦.